

من كتب الشرق والغرب

نزهة النفوس ومضحك العيوس

الفكاهة ، أو على الأقل لسنا نعرف في مصر شاعراً احتكره الهزل هذا الاحتكار . حقاً أن في الخريدة شعراء فاطميين يمتدون بالفكاهة في شعرهم ، وكذلك الشأن في العصر الأيوبي، ولكننا لا نجد شاعراً يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذي نجده عند ابن سودون .

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة في تاريخ أدبنا المصري ؛ لأنه يفصح إفصاحاً واضحاً عن مزاج المصريين في هذا الجانب الذي تشتهر به مصر في عصورها الإسلامية المختلفة . وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد في فكاهاته على المفارقة ، فهي المفتاح الذي ينصب منه جميع نغم الهزل في الديوان . وقد كان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هي أن يقف بين يديك موقفاً جاداً يريد أن يروي لك بعض العجائب ، ولكنه ما يبدأ في ذكرها حتى تحس مفارقة ونبوءاً وشذوذاً عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل في الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك قدقت توازنك ، فقد كنت على أمة أن تستمع لأشياء غريبة ، فإذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتها واصلتها . ومن هنا يأتي الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية ، هي أمكنة المنطق الواقع ، فنضطرب معها ولا نلبث

هذا عنوان ديوان (١) ألفه شاعر مصري يسمى ابن سودون ، وقد كان يعيش في القرن التاسع الهجري ، وكان إماماً يبيع المساجد ، إلا أنه اتخذ الهزل منهجاً له في حياته ، فطار اسمه وتنافس الظرفاء في الحصول على شعره الذي يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة . وقد عني أخيراً بجمع هذا الشعر في ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق ، كما يقول هو في مقدمة هذا الديوان ، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من المواليا مضافاً إليها طائفة من الطرف المعجبية والتحف الغريبة .

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامي ، وهو من هذه الناحية يسجل جانباً له أهميته في تاريخ لغتنا الشعبية ؛ فإن من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة ، وإن في هذا بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود ؛ فكثير من أمثال هذا الديوان واصطلاحاته وألفاظه لاتزال ماثلة تحت آذاننا في العصر الحديث . ولكن الشيء الذي يلفتنا حقاً في هذا الديوان هو أنه ألف كله في ضروب من الهزل والدعابة ، ولسنا نعرف شخصاً قبل ابن سودون كتب ديواناً من الشعر كله يأخذ مأخذ

(١) طبع هذا الديوان في القرن الماضي طبعة سقيمة . ولكن يدار الكتب المصرية نسخ مخطوطة منه مختلفة .

أن نضحك في غير نظام ، بل في فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . وانظر إليه يقول :

تيقن أن الأرض من فوقها السما
وبينهما أشياء متى ظهرت ترى
لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قضى
أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
فصر بها نيل على الطين قد جرى
وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الظهر قبل العصر قيل بلا مرا
ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويرد فيها الماء فى زمن الشتا
يطن كصيني طرقت سوا سوا
ويبكي زمان الحزن فيها إذا ابتلى
فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
لأنهم تبدو بأوجهم لحي
تراه بها وسط النهار وقد مشى
ثمارة كأثمار العراق لها نوى
بأثمارها قالوا يحركها الهوى
تدل على أنى من الناس يا فتى
ولا امرأة قد زوجانى ولا حما
وحققها بالفهم والحذق والذكا
إذا سمعت أنى أفوق على جحا

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل
وإنى سأبدى بعض ما قد علمته
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
وأنت أبى زوج لأمى وأنى
وكم عجب عندى بمصر وغيرها
وفى نيلها من نام بالليل به
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً
وفى الشام أقوام إذا مارا بينهم
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه
وتسخن فيها النار فى الصيف دائماً
وفى الصين صيني إذا ما طرقت
بها يضحك الانسان أوقات فرحه
ومن قد رأى فى الهند شيئاً بعينه
وفى رجال هم خلاف نساءهم
ومن قدمشى وسط النهار بطرقها
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا
به بأسقات النخل وهى حوامل
وعندى علوم بعد هذى كثيرة
وما علمتنى ذاك أمى ولا أبى
ولكننى جربتها ففرقتها
فيا بخت أمى بى ألا يا سرورها

لا تحتاج الى سمو فى العقل وما يشبه السمو ،
غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث
لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء
وأنها تحتاج الى عقل راق ، ثم تقرأ فإذا أنت
أمام حقائق أولية . وإنه يحاول أن يأتى
بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق ليجمعك
تقرب فى الضحك . ويتطرق ابن سودون
من هذه المقدمة إلى بيان ما رآه فى البلدان
المختلفة من عجائب ، وهو يبدأ بمصر فيروى
لك حقائق عامة مألوفة ، ولكنك ما تقرأها
حتى تضحك لأنه عرف كيف يعث بمنطقك

أرأيت كيف ينمس ابن سودون هزله فى
ليقة المفارقات ، فإذا الفكاهة تستوى له على
هذه الصورة المتناقضة ، فهو يبدأ حديثه بأن
الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه
اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء
وأن السماء من تحتها الأرض ، وأن بين السماء
والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها .
وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين
يسمو عقله ، فانه يقف أيضاً على أن الناس
من نسل آدم وأن أبأ صاحبنا زوج لأمه .
وماذا من الجدة فى هذه اليقينيات ؟ إنها

في الشطر الثاني . وما من شك في أنه حاول أن يقرب ما وسعه الاغراب حين أخذ يعرفنا بأن الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافاً بينا لما لهم من لحى ، كأن اللحي خاصة من حواس رجال الهند دون سواهم . وأعجب من ذلك وأعرب أن من يمشی هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى ، وهى مغالطة طريفة . ويعود ابن سودون إلى مصر أخيراً فيتكلم عن إقليم الصعيد ويعجب أن به ثماراً كأثمار العراق لها نوى ، أرايت إلى هذا النظر أو قل هذا القياس الدقيق ؟ إنها علوم ابن سودون الكثيرة كما يقول ، تلك العلوم التى تجعله يقتنع بأنه من الناس ، ولقد تعلمنا باجتهاده ورحلته ، وما تعلمها من أم ولا أب بل ولا من زوج ولا من حبا ، وإنما تعلمها من طريق تحقيقه وفطنته وذكائه ، وإنه ليهيئ أمه بنفسه مردداً أنه يفوق على جحا . وحقا أنه كان جحا القرن التاسع الهجرى ، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل الذى لا نبعد إذا قلنا إنه تفوق فيه لا على جحا وحده بل على كل من سبقوه . وهو فن — كما رأينا — كان يعتمد على المفارقات المنطقية . وربما كان من أطرف القطع التى تصور ذلك قوله فى رثاء أمه :

فطالما لحستنى لحس تحننى
خوفا على خاطرى كيلا تبكىنى
أقول أمبو تحبى بالماء تسقىنى
تقول : هاها : بهزكى تنينى
صوصو بنيلى وكما كانت تحننى
وبعد ذا كشكشتنى كى ترصينى
مسكى وبمى له كانت تحسبنى
تنثر الملح من فوق وترقىنى
على المنصة تلقانى بتزينى

هذا الحدث الذى جعله يقص عليك أن الفجر مصر يظهر قبل الشمس ، وأن الظهر يمر بنا قبل العصر . وإنه ليؤكد ذلك كأنه شئ مشكوك فيه ، فيقول إنها حقيقة « بلا مرأى » . وينتقل ابن سودون بإسماعه من مصر إلى الشام فيروى له أن بها ناساً ظهر كل منهم وراءه ، كأن الناس على قسمين ، قسم هذا الذى يراه فى الشام ، وهو قسم غريب ، ولذلك وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما رأى هناك من غرائب ، أما القسم الآخر فقد سكت عنه لأنه مفهوم ومعروف ، وهو إنما يروى المجهول غير المعروف . هذه قصة الناس هناك ، أما بدرهم فإن ضيائه يستتر حال النيم وأما شمسهم فإن ضياءها ينتشر حال الصحو ، وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء ، كأن ذلك كله شئ خاص بالشام . ويترك الشام إلى الصين فاذا هو يحدثنا أن بها صينيا يظن مثل ماذا ؟ « كصينى طرقت سوا سوا » . هل جاء ابن سودون بشئ ؟ إنه كما يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء ، وهو يستمر فى هذه المفارقة ، فالناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم ، وينتقل من الصين إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئاً بعينه ، فقد رآه بعينه ! هل قال ابن سودون شيئاً أكثر من أنه غالطنا ، فاذا هو يبيد ما قاله فى الشطر الأول

لموت أى أرى الأحزان تحننى
وطالما دلعتنى حال تريتى
أقول نمنم تحبى بالاكل تطمئنى
إن صحت فى ليله وأولاً لاسهرها
كم كعلتنى ولى فى جبهتى جعلت
وربما شكشكتنى حين أغضفها
ومن قهقى إن أهرب ورام أبى
وزغرطت فى طهورى فرحة وغدت
وفى زواجى تصدت للجلأ عسى

وبعد ذلك ماتت آه وأنيق
وأربعين سنيًا في حساني
لى فى من بعدها جودوا بأمين

وربت اولاداً أيضاً مثل تربيتي
وخلفتني يتما ابن أربعة
يعظم الله فيها الأجر لى وكذا

فيها من ضحك فى موضع الرثاء وما يطوى
فيه من حزن . ولا يكتفى ابن سودون بذلك
إذ تراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترب
بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ها ها
ونحو ذلك . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو
أمه عليه وكيف كانت تتكلمه وكيف كانت
« تخفيه » ثم كيف كانت « تكشكشه »
وكيف كانت « تكشكشه » . ثم يقص علينا
كيف كانت « تخفيه » حين يهرب من الفقيه
وأنها « زغرطت » يوم طهوره وزينته يوم
زواجه . وأخيراً يعلن أنها خلفته يتما ابن
أربعة وأربعين سنيًا ، كما يقول . وكل هذه
مفارقات ؛ فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن
أربعة وأربعين ، وهو باك وهو فى الوقت
نفسه ضاحك ، بل إنه ليضحك حتى يخرج
بضحكه إلى هذا الهزل وما يتصل به من
فكاهة . وفى أى موضع يصنع ذلك ؟ فى
الرثاء أو ببارة أخرى فى أكثر المواقف
دعوة للحزن وأشدّها استثارة للبكاء ، وهو
بلا ريب يجرح هنا شعورنا ؛ لما اصطلحنا عليه
فى مثل هذا الموضع ، لكنه جرح ينتهى بنا
إلى أن نضحك بل إلى أن نفرق فى الضحك
لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وإنه
ليغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته
وجال فكاهته . وارجع إلى ديوانه فستجده
دائماً يعتمد على هذه الميانيات بين ما تنتظره
وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف
ما جاء من ذلك وصفي لحفلة زواجه إذ
يقول :

ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى
هذا الرثاء يفرق فى الضحك ؛ لأن ابن سودون
اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذه
الظروف اعتداء شديداً أو قل اعتداء صارخا .
وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى
نجد فيه شخصاً يقف بازاء أمه — وقد لبث
نداء ربها — ليرثها وكأن كل كلمة فى رثائه
تعبر عن دمة تنحدر من عينه ، فإذا هو يترك
ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى
مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو
مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل
بالفرح والسرور ، كأنما يتحدث إلى أمه فى
أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه
تستمع إلى طرفه فتضحك ، وقد تغرب فى
الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة
يحدثها عن ذكرياتها القديمة . وهذه المخالفة
فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى
أساس فكاهة ابن سودون فى هذه القطعة .
وارجع إلى مطلعها فانك تراه فى الشطر الأول
من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انههداً فقد
قوسه الحوادث وحناء . ولكنك لا تقرأ
الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فإذا هو يذكر
كيف كانت أمه « تلحسه لحس تخين » وكيف
كانت « تدلعه » خوفاً على « خاطره » .
ونستمر فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكرة
أنه كان حين يقول نغم تأتى أمه له بالأكمل
وحين كان يقول أمبو تأتى له بالماء . أرايت
صرامة الموقف وما يمل به على ابن سودون ؟
إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى

حل السرور بهذا المقد مبتدرا
والكل كل وجه الأرض فانمطت

بكل عود عليه لا ترى وترا
على العرايس كي يقضوا به الوطرا
حد الأشد وعقلي في الورى اشترا
أنى إذا نمت مع ظهري يكون ورا
عقلي ولكن حوت في عمرها كبرا
بالسن من رمح أو سيف إذا بترا
في عينها عمش للجفن قد سترا
في كفها فليج ما ضر لو كسرا
في عمرها نوب كم قد رأت عبرا
بوما وقد سبست في جيدها شعرا
أواه لو حاشها موت لها قبرا

والطير من فرحها في دوحها صدحت
تقول في صدحها دام الهنا أبدا
وكنت عند زفافي قد وصلت إلى
فكنت أعرف من عقلي وكثرته
هذا وعقل عروسي كان أصغر من
في السن قد طعنت ما ضر لو طعنت
في لونها شمس ، في أذننها طرش
في بطنها ببعج ، في رجلها عرج
في ظهرها حذب في قلبها كدر
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت
تظل تهتف بي : حسنا حظيت بها

القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة في هذه
الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه .
وأعمن النظر في القطعة فانك تجد يقف أثناء
وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابها
بقامتها على ما فيها من عوج وأمت ، بل على
ما في صاحبها من ببعج وعرج وفليج وحذب !
وهذا هو التباين أو هو المفارقة التي تتبع
منها فكاهة ابن سودون ، وإنها لمفارقة تميزه
من نظرائه الفكهين في الشعر العربي ، بل
في الشعر المصري نفسه ، فنحن لا نعرف
أحد أسبقه إلى هذا التفنن الواسع في استخدام
المفارقة على هذا النحو في شعره ، فإذا هو
يتحول كله إلى هذه الطرائف الفكاهية .
وقد كان ابن سودون يدمج في هذه المفارقة
ضروبا من التباين وإظهار الفسلة كما مر في
الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد في قوله :

والفيل فيل والزراف طويل
والطير فيما بينهن يمحول
فالارض تثبت والفصون تميل
ويرى له مها مشى سيلول

وأنت تراه يعمد في هذه القطعة إلى المفارقة
حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة .
فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان
من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين في فرحهما ،
وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباين بل إنه
ليعلنه ، فمقله على كثرته لم يكن يعرف به
إلا أنه إذا نام كان ظهره من ورائه ، ومع
ذلك فمقله أكبر من عقل زوجه . وقد ذهب
بعد ذلك يعرض علينا زوجه هذه في صورة
مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره ، وهذا
هو معنى ما نقوله من أنه يعمد إلى ضروب
من المفارقة والتباين في هزله ، فبينما هو في
مستهل هذه القطعة يملأ الجو بشرا وأبتساما
لهذا الزواج السعيد ، إذ هو يملؤه بعد ذلك
كآبة وغيا وكفهراراً ، لما صدم شعورنا به
من وصفه لهذه الزوج القبيحة التي جمعت فنون

البحر بحر والنخيل نخيل
والارض أرض والسماء خلافا
وإذا تعاصفت الرياح بروضة
والماء يمشى فوق رمل قاعد

لنا في هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا
وذهب يرويه في هذا الضرب من البلهو والسذاجة ،

وهو لا يأتي بشيء غريب ومع ذلك فإن
شيثاً من الضحك يلم بنا ، لأن ابن سودون جمع

من كتب الشرق والغرب

ومى سداجة هياته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال بحدهما فى شعره كقوله :

وصار لمتهى عقلى ابتداء
ودحو كخ وانبو م آء

ولما أن كبرت بمحمد ربي
بعيت أقول تنو تنو تاته

الحيوانات ؛ إذ نراه يقلد صوت الحروف
والبقرة ، وقد قلد صوت الاوز مراراً . ومن
طرفة قوله فى « كسكوت » :

قدد حشد فى البيت الثانى كل ما يمكن من
لغة الأطفال ؛ وله فى هذا الباب طرف كثيرة .
وقد حكى فى ديوانه كثيراً من أصول

فيمو بزيق
من البرد زيق
وحنك فيه تقاره
دويمك رشيق
يكتك يجي
لحسو زصيق
كلما انشرح لولح بو
ولو ساق رقيق
يناقر أخوه
قيح فى الطريق

شريت لى كتيكيت
صريين يصيح
لو حليق فيه زمارة
يزمر ينقر
أقول لو كتكت
يرفر فر يزقزق
لوجناح لاح من جنبو
غليظ البطينه
كبر صار شويطن
وبعمل لاخنو

بعضها إلى بعض . وقد تعلق = بجانب ذلك -
بوصف الأطعمة والتحدث عنها متحدثاً يشوبه
الحشم بل تشوبه « الفجعة » . وقد آتى فى هذا
الباب ببذع كثير . وله بعد ذلك مواليات
كثيرة لعل من أغربها قوله :

وما من ريب فى ان هذه قطعة خفيفة ،
وإنها لتعبر عما أمتاز به ابن سودون من حاسة
الفكاهة التى لا تجد لها نظيراً بين من عاصروه ،
فقد كان يعرف كيف يجمع الصفات والخصائص
لكل شئ بما له ، وكانت تسعف فى ذلك مخيلة
لاقطة تعرف كيف تضم أشتات الصورة

فى مصر والشام وف غزه مع الرمله
وذاك فى الساقيا ياكل بفرقله

التور والبقر اذى العام ومن قبله
هديق تجبل وتولد مجل أو مجله

غرابة ولا إضحاكا وتقتنا فى الاضحاك عما
رويناه من شعره بل لعلها تتفوق فى كثير
من جوانبها على هذا الشعر . وقد نعرض
لهأ فى مقال آخر ، أما الآن فحسبنا من
شعره هذه النغب الطائفة .

وإن الانسان ليخيل إليه أن ابن سودون
لم يترك شيئاً فى حياته يمكن أن يستخرج منه
لونا من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام
نظارته وقرائه . وقد ساق فى ديوانه مجموعة
من الحكايات والطرف النثرية ، وإنها لاتقل

شرقى ضيف